مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة

العدد التاسع

1992 م.

الحروف العربيّة الفرعيّة المستحسنة في نظر سيبويه في ضوء الدراسات الصّوتية الحديثة

الدكتور مناف مهدي محمد
كلية التربية - جامعة السّابع من إبريل
الزاوية - الجماهيرية العظمى

مقدمة:

تطورت الدراسات العربية في القرن الثاني الهجري تطوراً واسعاً عندما تناولت تلك الدراسات الموضوعات الصوتية بالوصف والتحليل، وذلك بدافع خدمة لغة القرآن الكريم، والشعور بأن تعلم اللغة واتقانها لا يتم بدون دراسة أصواتها دراسة جيدة، لإتقان أدائها بصورة صحيحة وحمايتها من اللحن والتحريف بعد اختلاط العرب بشعوب أخرى من الناطقين بغير العربية.

فنبغ علماء اللغة والنحو في هذا المجال، ووضعوا دراسات صوتية رائدة على الرغم من إمكاناتهم البسيطة، حيث اعتمدوا على الملاحظة الذاتية وحسّهم المرهف في وصف الصوت العربي، وتوصلوا إلى نتائج علمية جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم، حازت احترام علماء الأصوات في الوقت الحاضر، وأثارت دهشة المستشرقين وإعجابهم.

من هذه الدراسات الصوتية دراسة سيبويه للأصوات العربية الفرعية، وبخاصة المستحسنة منها. وهي حروف أصلها من التسعة والعشرين حرفاً، وذكر أنّها كثيرة الورود في الكلام ويؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار العربية، لذلك أشار إليها وتعرض لوصفها في مواضع متفرقة من كتابه، ستتعرف عليها من خلال هذا البحث، كما نعرض لأقوال من جاء بعده كابن جني وابن عصفور وابن يعيش وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين الذين تعرّضوا لهذه الحروف أيضاً، ومقارنة ذلك بما ذكره المحدثون في هذا المجال من الدراسات الصوتية وفق النتائج الحديثة لعلم الأصوات اللغوية.

اهتم النحاة العرب بالدراسات الصوتية إيماناً منهم بأنّها مادة الألفاظ وأساس تركيب الكلام والركيزة في تلوين الأداء وإعطائه صورة صادقة لأفكار المتكلم ومؤثرة عند طرقها أذن السامع.

ويعد سيبويه من أبرز هؤلاء النحاة الّذين اهتموا بالصوت اللُّغوي، وبالعلاقات المخرجية. فهو كما تحدَّث عن مخارج الحروف الأصلية منها والفرعية بشقيها المستحسن والمستقبح، تحدث كذلك عن صفات الأصوات الخاصة منها والعامة، وألقى الضوء على التعبيرات الصوتية في عملية الإدغام والإبدال. فخصّص باباً للإدغام ومضارعة الحروف في آخر مؤلفه (الكتاب)، كما حدّد مخارج الحروف الأصليّة مما جعله محل إعجاب المحدثين وأثار انتباههم لدقته في وصف أصواتها.

فهذا المستشرق الألماني شاده وهو من علماء الأصوات المحدثين يقول فيه: «إنّه بلغ في تعيين مواضع الحروف ومخارجها من الصحة والدقة ما يعسّر علينا الزيادة والإصلاح[1] وما يهمنا في هذا المجال هو النظرة الجمالية لبعض الأصوات والتي خصّها اللغويون العرب بالذكر وعدّوها مستحسنة مع أنها حروف فرعية، قال عنها سيبويه:

(1) (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا) محاضرة ألقاها الأستاذ أ. شاده بقاعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة ونشرت بصحيفة الجامعة المصرية السنة الثانية (العدد الخامس ص 15) (ذو الحجة 1349 هـ - مايو 1931 م).

«هي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة الأشعار»[2].

لقد اقتصر هذا البحث على هذه الحروف المستحسنة فقط لما لمعرفتها من أهمية كبيرة لأنّها تتفرع عن الحروف الأصلية التسعة والعشرين المعروفة، وعدد هذه الحروف الفرعية ستة حروف أجاز اللغويون القدماء استعمالها كسيبويه[3] وابن جني[4] وغيرهما[5]، وفيما يلي الحديث عنها:

أولاً: الألف التي تمال إمالة شديدة:

هي الألف الجانحة نحو الياء كقراءة[6] حمزة والكسائي (وهما من قرّاء الكوفة) ونافع (المدني) وأبو عمرو (البصري) وخلف (البغدادي) قوله تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾[7] فيجعلون صوت الألف الأخيرة في ﴿الضحى﴾ و﴿السَّجَى﴾ كصوت الياء في لفظة (البيت) في اللهجات العامية المعاصرة.

ووفق هذا ذهب نحاة العرب[8] القدماء فذكروا أن الإمالة جنوح بالألف إلى صوت الياء وبالفتحة إلى صوت الكسرة.

وقد اتفق المحدثون مع القدماء في حقيقة الإمالة واختلفوا في تصويرها، فعرّفها أحد المحدثين بأنّها: «نطق الفتحة (ـَـ) (a) نطقاً أمامياً فيقترب مخرجها من مخرج الـ(e) في الفرنسية بل حتى (ا)»[9] وقوله: «نطقاً أمامياً» يعني أنّ مقدمة اللسان ترتفع قليلاً عند نطق الفتحة الممالة بينما يكون اللسان مستوياً عند نطق

---

(2) الكتاب: 432/4 (تحقيق أ. عبد السلام هارون ـ ط 2 دار الجيل بمصر سنة 1982 م ـ 1402 هـ).
(3) الكتاب: 432/4.
(4) سر صناعة الإعراب: 46/1.
(5) الممتع: 665/2. شرح الشافية: 254/2. شرح المفصل: 126/10.
(6) النشر في القراءات العشر لابن الجزري: 37/2 (طبع دار الكتب العلمية بيروت)، والسبعة في القراءات لابن مجاهد: 690 تحقيق د. شوقي ضيف (ط 2 دار المعارف، والتيسير لأبي عمرو الداني (مطبعة الدولة اسطنبول 1930).
(7) سورة الضحى، آية: 2.
(8) المقتضب: 42/3. (ط الأهرام بالقاهرة 1386 هـ)، والجمل للزجاجي: 363 (ط 2 باريس).
(9) كانتينو، دروس في علم أصوات العربية: 156 (ترجمة صالح القرمادي: الجامعة التونسية 1965).

الفتحة الخالصة والغرض من الإمالة كما يقول ابن جني: «لضرب من تجانس الصوت»[10] و «ليكن العمل من وجه واحد»[11]، ويرى ابن يعيش أنّ غرضها: «هو تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل»[12] ومن هذه الأقوال يتضح أنّ الإمالة ضرب من الانسجام والتقريب بين الأصوات، أي: تناسب صوتين وتقاربهما وذلك لأنّ النطق بالياء والكسرة يحتاج إلى ارتفاع مقدم اللسان، وعند نطق الألف والفتحة يكون اللسان مستوياً في قاع الفم مع انفراج الشفتين، وعند الإمالة تصير الألف من نمط الياء في الانحدار والتسفل.

لذلك نرى الألف تمنع من الإمالة إذا وقعت قبل أحد الحروف المستعلية أو بعده، وهذه الحروف هي: (الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والغين والقاف، والخاء).

فلا إمالة في قولنا: (ظالم، صابر، طالب، غالب، خائن، قاعد، ضافر)[13].

قال المبرد: «فإذا كانت هذه الحروف ـ أي: الحروف المستعلية ـ في موضع الفاءات في فاعل منعت الإمالة لقربها، وهي بعد الألف أمنع، لئلا يتصعد المتكلم بعد الانحدار»[14].

فيظهر أن السبب في ذلك هو أنّ الإمالة انحدار وتسفل من حيث إننا نميل الألف نحو الياء وهذه الحروف السبعة تتصاعد في الحنك، من هنا حصل الاختلاف بينهما فتركت الإمالة لتكون الألف بتفخيمها مشاكلة للمستعلي وقد أدرك هذا سيبويه ونبّهنا له فقال: «وإنّما منعت هذه الحروف الإمالة لأنّها حروف مستعلية إلى الحَنَك الأعلى، والألف إذا خرجت من موضعها استعلت إلى الحنك الأعلى،

---

(10) سر صناعة الإعراب: 58/1 (مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر 1954).

(11) المنصف شرح تصريف المازني لابن جني (تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ـ مصر 1373 هـ/1954).

(12) شرح المفصل: 54/9. (عالم الكتب بيروت).

(13) الكتاب: 128/4.

(14) المقتضب: 46/3 وانظر الحجة لأبي علي الفارسي: 38.

فلما كانت مع هذه الحروف المستعلية غلبت عليها، كما غلبتِ الكسرة عليها في مساجد ونحوها، فلما كانت الحروف مستعلية وكانت الألف تستعلي وقربت من الألف، كان العملُ من وجهٍ واحد أخفَّ عليهم، كما أن الحرفين إذا تقارب موضعهما كان رفع اللّسان من موضع واحد أخفّ عليهم فيدغِمونه»[15].

وقد أيّد المحدثون ما ذهب إليه سيبويه والنحاة العرب فيما ذكروه من أسباب تمنع الإمالة فقال كانتينو: «فإننا.. نوافقهم تمام الموافقة في ضبطهم لموانع الإمالة، أي: الحروف التي إذا جاورت الألف منعت إمالتها وهي الحروف السبعة المستعلية.. وكذلك الحرفان المفخمان في بعض مواقعهما أي الراء واللام»[16].

وعلى هذا أضاف المحدثون صوت الراء واللام المفخمين، وذلك لأنّ تفخيمهما في تلك المواقع يعني ارتفاع مؤخر اللسان نحو الطبق فيشبهان بذلك الأصوات المستعلية ويأخذان حكمهما من امتناع الإمالة عند مجاورتهما للألف.

وقد استنكر سيبويه من يميل الألف مع تلك الحروف المستعلية وقال: «ولا نعلم أحداً يميل هذه الألف إلا من لا يؤخذ بلغته»[17].

وبهذا يبرز لنا سيبويه المظاهر الجمالية في البنية الصوتية التي انطبع عليها الفرد العربي وينبّه إلى ما خالف تلك الطباع العربية بقوله: هي لغة «من لا يؤخذ بلغته».

إلا أن سيبويه يستثني في حالة واحدة ورود الإمالة في الألف مع وجود حرف من حروف الاستعلاء فيقرر جواز قراءة (خاف) بالإمالة على الرغم من وجود الخاء وهو مستعل ويعلل سبب ذلك بأن في صيغة (خِفت) كسرة فيقول في سبب الإمالة في (خاف) «لأنّه يروم الكسرة التي في خفت كما نحا نحو الياء»[18].

وتتضح الغرابة في هذا القول: لأنّه بهذا خالف القول السابق في عدم وجود

---

(15) الكتاب: 129/4.

(16) دروس: 159.

(17) الكتاب: 129/4.

(18) الكتاب: 131/4.

الإمالة مع الحروف المستعلية إلى الحنك الأعلى لغلبة الاستعلاء على الاستفال الذي يحصل في الإمالة، ولكن يبدو لي أنّ سيبويه تنبّه إلى شعور القارىء وأحاسيسه عندما يقرأ لفظة (خاف) فإنه سيتأثر بما عرفه من وجود كسرة عندما يسند الفعل للمتكلم فيقول (خفت).

وقد أجمع علماء اللغة العربية على نسبة الفتح لأهل الحجاز والإمالة لقبائل نجد فنرى أنّ القبائل العربية قد انقسمت قبل الإسلام وبعده إلى شعبتين:

الشعبة الأولى: تؤثر الفتح ولا تستقيم ألسنتها بغيره.

والشعبة الثانية: قد انتشرت فيها الإمالة[19].

والقبائل التي ينسب إليها الفتح هي التي كانت مساكنها غربي الجزيرة العربية بما في ذلك قبائل الحجاز[20] أمثال قريش والأنصار وثقيف وهوازن وسعد بن بكر وكنانة.

أما القبائل التي تنسب إليها الإمالة فهي جميع القبائل التي سكنت في وسط الجزيرة وشرقيها وأشهرها تميم وأسد وطيىء وبكر بن وائل وعبد القيس وتغلب[21].

أما في اللهجات العربية الحديثة فنجد الإمالة تنتشر بشكل واسع في المناطق الريفية في اللهجات العراقية وكذا في مدن وسط وجنوب العراق فيقولون ـ مثلاً ـ في الكوفة[22] (بيذنجان) في (الباذنجان) و(غربيل) في (الغربال).

وفي سوريا تنتشر الإمالة في آخر الكلمات كقولهم في لهجة حوران[23]

---

(19) انظر اللهجات العربية، د. إبراهيم أنيس: 60.

(20) النشر في القراءات العشر لابن الجزري: 30/2 (مطبعة مصطفى محمد).

(21) شرح المفصل لابن يعيش: 59/9 وهمع الهوامع للسيوطي: 204/2 (ط 1 ـ السعادة بمصر 1327 هـ).

(22) انظر كتابنا لهجة الكوفة الحديثة وصلتها باللغة العربية الفصيحة، ص 120 (رسالة ماجستير ـ جامعة الأزهر 1981 م).

(23) كانتينو: 161.

(بِنْسِي) أي (ينسَى) فيميلون فتحة السين.

أما بالمغرب العربي فإن إمالة الفتْحة الطويلة تميز بين بعض اللهجات مثل لهجات طرابلس والساحل التونسي وجنوب سكيكدة وصحراء الجزائر. ففي مقاطعة مدينة الجزائر مثلاً نرى أصحاب لهجات التل ينطقون بفتحة طويلة خالصة أو بشيء من الغُنّة الخيشومية أحياناً قولهم (سْمَا) في (سَماء)، و(نْسَا) في (نسِي) في حين نرى أصحاب اللهجات الصحراوية يميلون الفتحة الطويلة في كلّ ذلك كقولهم (سْمِي) و(نْسِي)[23].

ثانياً: ألف التفخيم:

هي ألف مدّ ممالة نحو الضمّ كما في قراءة بعض القراء لكلمة (الصلاة)[24] وقد حدّدها سيبويه بقوله: «يُعنَى بلغة أهل الحجاز في قولهم: الصّلاة والزّكاة والحياة»[25] وهذه الألف يكون نطقها كما يبدو عكس الإمالة وتكون بإدخال جرس خلفي على الفتحة الطويلة وذلك يحدث غالباً عندما تكون مجاورة للحروف المفخمة. ووصف هذا التفخيم هنري فليش[26] بقوله: «هو الذي يجعل الفتحة الطويلة (ā) ضمة طويلة مفتوحة (ō)» وكثيراً ما ترسم هذه الفتحات الطويلة على هيئة الواو فتكتب هكذا (صلوة) و(زكوة) و(حيوة) وذلك كما يبدو إشارة إلى استدارة الشفتين عند نطقها مع اتساع الفم نتيجة لحركة الفك الأسفل مع ارتفاع مؤخر اللسان قليلاً فبذلك يحدث الصوت المفخم الذي ينتج عن هذه الوضعية للفم ويصف الدكتور تمام حسان[27] حالة الفم عند النطق بهذا الصوت فيقول: «يصير الفم في مجموعه حجرة رنين صالحة لإنتاج القيمة الصوتية التي نسميها التفخيم على لغة أهل الحجاز». وذكر أيضاً سبب كتابة ألف التفخيم في الصلاة والزكاة بصورة الواو فقال: «لما جاورت أصواتاً غير مطبقة فخشي مدونو القرآن

---

(24) الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس: 40. وانظر شرح المفصل لابن يعيش: 127/10.

(25) الكتاب: 432/4.

(26) العربية الفصحى: 35. (تعريب وتحقيق د. عبد الصبور شاهين، دار المشرق ـ بيروت 1983 م).

(27) اللغة العربية معناها ومبناها: 53. (دار الثقافة ـ الدار البيضاء ـ المغرب).

على تفخيم الألف، فلهذا السبب كتبوها في صورة الواو ليعلم القارىء أن هذه الألف مفخمة»[28].

ثالثاً: الصاد التي تكون كالزاي:

لم يضرب سيبويه مثالاً لهذا الحرف في موضعه الذي ذكره ضمن الحروف المستحسنة[29]، ولكن عند استقصاء الكتاب نراه يفسر لنا هذا الصوت الذي استحسنه وأجازه في قراءة القرآن والأشعار العربية حيث قال: «إنك تقول في باب الإدغام مُصْدَرٍ، فتقرِّبها من أشبه الحروف من موضعها بالدال وهي الزاي ولا تفعل ذلك الصاد مع الراء والقاف نحوهما لأنّ موضعهما لم يقرب من الصاد كقرب الدال.

وزعم هارون أنها قراءة الأعرج. وقراءة أهل مكة اليوم: ﴿حتى يَصْدُر الرّعاء﴾[30] بين الصاد والزاي»[31]. وبذلك يتضح مثال هذا الصوت وهو ما ذهب إليه أيضاً ابن عصفور في الممتع[32] وقال عنه المبرد[33]: «الحرف المعترض بين الزاي والصاد»، كما وصف هذه الصاد الدكتور تمام حسن بقوله:

«هي صاد مجهورة مفخمة تشبه نطق العامة في مصر للظاء في كلمة (ظالم) مثلاً والقاهريون ينطقون هذه الصاد المجهورة في كلمة (مصدر) كما كان العرب ينطقونها قديماً ولكن العرب كانوا ينطقونها من أجل الصاد في مثل الصقر والصراط كذلك»[34].

ويقصد بقوله من أجل الصاد أي بتأثير تفخيم الصاد صارت الزاي مفخمة.

---

(28) د. تمام حسان: المصدر السابق، وانظر شرح ابن يعيش: 127/10.
(29) الكتاب: 432/4.
(30) سورة القصص، آية: 23.
(31) الكتاب: 196/4. وانظر سر صناعة الإعراب: 46/1.
(32) الممتع: 665/2. (تحقيق د. فخر الدين قباوة، ط 4 دار الآفاق - بيروت 1979 م).
(33) المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة: 194/1 (طبع عالم الكتب بيروت).
(34) اللغة العربية معناها ومبناها: 54.

وكذا بتأثير تفخيم الطاء يمكن أن تنطق الزاي مفخمة عند إبداله من الصاد في الصراط. وقال عنها ابن جني «هي التي يقل همسها قليلاً، ويحدث فيها ضرب من الجهر لمضارعتها الزاي»[35].

فقد قرئ[36] ﴿الصراط المستقيم﴾ بإشمام الصاد الزاي وهي قراءة حمزة كما روى ذلك أبو زرعة[37] وهي لغة قيس[38] وينقل ابن يعيش عن أبي عمرو قوله حول لفظة الصراط: «فيها أربع قراءات منها الصراط بين الصاد والزاي رواها عريان بن أبي شيبان قال سمعت أبا عمرو يقرأ الصراط بين الصاد والزاي كأنّه أشرب الصاد صوت الزاي حتى توافق الطاء في الجهر لأنّ الصاد مهموسة والطاء والدال مجهورتان فبينهن تناف وتنافر فأشربوا الصاد صوت الزاي لأنّها أختها في الصفير والمخرج وموافقة الطاء والدال في الجهر فيتقارب الصوتان ولا يختلفان»[39].

ويمكن أن نضيف إلى قوله «حتى توافق الطاء في الجهر» فنقول: حتى توافق الطاء في الجهر[40] والإطباق، فيخرج الصوت الجديد بشيء من التفخيم أي: زاياً مطبقة، ويدعم قولنا هذا ما فسره سيبويه في (باب الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه...) فقال:

«فأما الذي يضارع به الحرف الذي من مخرجه فالصاد الساكنة إذا كانت بعدها الدال وذلك نحو مَصدر وأصدَرَ.. فضارعوا به ـ أي: ضارعوا الزاي بالصاد ـ أشبه الحروفّ بالدال من موضعه ـ أي: من موضع الصاد ـ وهي الزاي

---

(35) سر صناعة الإعراب: 50/1.

(36) الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي: 36/1 (تحقيق علي النجدي وزميليه، الهيئة المصرية 1983).

(37) حجة القراءات: 80 (تحقيق سعيد الأفغاني ط 3 مؤسسة الرسالة 1402 هـ/1982 م).

(38) إتحاف فضلاء البشر للدمياطي: 123.

(39) شرح المفصل: 127/10.

(40) هذا إذا اعتبرنا الطاء القديمة كانت مجهورة كوصف القدماء لها وإجماعهم على ذلك. أما نطقها في الوقت الحاضر مهموسة كما دلت التجارب الصوتية الحديثة. (انظر محاضرة شاده: 13. والأصوات: 62).

لأنّها مجهورة غير مطبقة ولم يبدلوها زاياً خالصة كراهية الإجحاف بها للإطباق»[41] ويضيف قائلاً: «فإن تحركت الصاد لم تبدل لأنّه قد وقع بينهما شيء فامتنع من الإبدال إذ كان يُترك الإبدال وهي ساكنة ولكنهم قد يضارعون بها نحو صاد صَدَقَتْ... وربما ضارعوا بها وهي بعيدة نحو مصادِر والصراط، لأنّ الطاء كالدال».

ويعلل سيبويه سبب تلك المضارعة فيقول: «إنّما دعاهم إلى أن يقربوها ويبدلوها أن يكون عملهم من وجه واحد وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد»[42].

وهذا شبيه بما نقله أبو علي الفارسي عن ابن السراج قوله «من قرأ بالمضارعة التي بين الزاي والصاد: رمت الخفة ولم أجعلها زاياً خالصة ولا صاداً خالصاً فيلتبس بإحداهما»[43].

وقول سيبويه يوافق ما اصطلح عليه المحدثون بـ «نزعة الاقتصاد»[44] إلا أنّ هناك فرقاً بين ما يذهب إليه سيبويه في هذه المسألة وما يراه المحدثون فيها، حيث إن سيبويه يعتبر هذه النزعة كشيء يشعر به المتكلم، وهذا مخالف لرأي المحدثين حيث يشرح رأيهم الأستاذ شاده فيقول: «إننا نذهب إلى أن تشبيه الحرف بالحرف التالي أو تقريبه منه يعادل فتح الآكل فمه قبل أن يبلغ الطعام شفتيه كذلك شخص يريد أن ينطق بكلمة (المصدر) مثلاً بينما هو ينطق بالصاد يهيىء أوتاره الصوتية كما تقتضيه الدال، ونتيجة ذلك العمل الغريزي هي أنّ جهارة الدال تنتقل إلى الصاد فتصير زاياً، أعني زاياً مطبقة».

وبهذا يظهر أنّ الصاد أبدلت زاياً مجهورة مطبقة وكما قال عنها سيبويه «بين الصاد والزاي» وذلك عندما جاورت الصاد ـ المطبقة المهموسة ـ الدال المجهورة، فلكي يتناسب الصوت المهموس مع المجهور أبدلت الصاد المهموسة بصوت من

---

(41) الكتاب: 4/477 ـ 478.

(42) المصدر نفسه: 4/478.

(43) الحجة لأبي علي: 1/37.

(44) أ. شاده، علم الأصوات عند سيبويه وعندنا: ص 17.

مخرجها ولكنه مجهور ويتناسب مع صوت الدال المجهورة ويتفق معه بالمخرج مع اكتساب صفة التفخيم للزاي التي أبدلت بمواءمة الصاد الدال في (مُصدر) وإشمام الصاد الزاي، وما ورد في هذا الحكم ينطبق على مواءمة الصاد للطاء في (الصراط) وإشمام الصاد الزاي أيضاً وكما قال سيبويه «لأنّ الطاء كالدال»[45].

وهناك أمثلة أخرى وردت قديماً كما روى ذلك ابن السكيت[46] في كتاب الإبدال نقلاً عن خلف فيقول: «سمعت أعرابياً يقول: (لم يُحْرَم من فُزْدَ له)[47] أراد فُصِدَ له فَخَفَّفَ وأَبْدَل الصاد زاياً».

كما زعم أبو الطيب اللغوي[48] أنّ طيئاً تقلب كل صاد ساكنة زاياً ولم يقيدها بشرط وقوعها قبل الدال مما جعل الدكتور رمضان عبد التواب يظن أنّ هناك عبارة ساقطة في نصّ أبي الطيب فقال: «الصواب إضافة عبارة: (قبل الدال) وذلك لأنّ الأمثلة التي أوردها جميعها قد وردت فيها الصاد قبل الدال مباشرة»[49].

وهذا موافق لما قاله سيبويه في باب المضارعة التي سبق أن ذكرناه.

رابعاً: الهمزة التي بَيْنَ بَيْنَ:

لم يضرب سيبويه لها مثلاً في موضعه[50] ويقول عنها ابن عصفور هي «الهمزة المخففة»[51] وقال عنها الدكتور تمام حسان[52]: هي همزة متحركة تكون

---

(45) الكتاب: 478/4. يعني أن الطاء كالدال في المخرج وكذا في صفة الجهر ولا فرق بينهما إلا في كون الطاء مطبقة أما نطق الطاء في الوقت الحاضر فيقول المحدثون عنها: إنها مهموسة أي لا تهتز الأوتار الصوتية عند نطقها (انظر محاضرة شاده: 13. والأصوات: 62).

(46) كتاب الإبدال: 105 (تحقيق: د. حسين محمد شرف وأ. علي النجدي ـ القاهرة 1398/1978).

(47) هو من الأمثال العربية القديمة. والفَصِيد: دم كان يجعل في معي من فَصْدِ عِرْق البعير ثم يُشْوَى ويطعمه الضيف في الأزمة فيقال: من فُصِدَ له البعير فهو غير محروم. ويضرب في القناعة باليسير (مجمع الأمثال: 192/2).

(48) الإبدال لأبي الطيب: 126/2 (تحقيق عز الدين التنوخي ـ دمشق 1960).

(49) التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه: 34 (مطبعة المدني ـ القاهرة سنة 1977).

(50) الكتاب: 432/4.

(51) الممتع: 665/2.

(52) اللغة العربية معناها ومبناها: 53.

بعد ألف أو بعد حركة فتصير في النطق مجرد خفقة صدرية لا يصاحبها إقفال للأوتار الصوتية كما في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ للنَّاس. . .﴾[53].

وعلى هذا يكون نطقها وسطاً بين النطق بالهمزة والنطق بغير الهمزة، فهي تختلف من حالة إلى أخرى. فهي إذا كانت مكسورة كانت بين الهمزة والياء، وإذا كانت مضمومة فهي بين الهمزة والواو، وإذا كانت مفتوحة فهي بين الهمزة والألف.

وقرِيء[54] بهذه الهمزة في القراءات القرآنية، فقد قرأ أبو عمرو وهشام وقالون ﴿أَأَنتم﴾ في قوله تعالى: ﴿أَأَنتم تَخْلُقُونَه أم نَحنُ الخالقون﴾[55] بتسهيل الهمزة الثانية بَيْنَ بَيْنَ دون إدخال ألف بينهما.

وعلّق الدكتور رمضان عبد التواب على هذه الهمزة فقال: «هو في الحقيقة عبارة عن سقوط الهمزة من النطق ونطق الفتحتين قبلها وبعدها، بسكتة لطيفة بينهما»[56].

واستبعد الدكتور إبراهيم أنيس إمكانية وصف هذه الهمزة (همزة بين بين) وصفاً علمياً دقيقاً فقال: «أما التكييف الصوتي لهذه الحالة فليس من اليسير الجزم بوصفه وصفاً علمياً دقيقاً وإذا صحّ النطق الذي نسمعه من أفواه المعاصرين من القراء تكون هذه الحالة عبارة عن سقوط الهمزة من الكلام تاركة حركة وراءها، فالذي نسمعه حينئذ لا يمت إلى الهمزة بصلة بل هو صوت لِيّن قصير يُسمّى عادة حركة الهمزة، من فتحة أو ضمة أو كسرة. ويترتب على هذا النطق التقاء صوتي لين قصيرين، وهو ما يسميه المحدثون Hiatus ويغلب في معظم اللغات أن تؤدي مثل هذه الحالة إلى صوت لين انتقالي، ينشأ من الحركتين أو صوتي اللين القصيرين»[57].

---

(53) سورة المائدة، آية: 116.

(54) النشر: 1/363. والبحر المحيط: 1/47 ـ 48. والكشاف: 1/26.

(55) سورة الواقعة، آية: 59.

(56) هامش كتاب التطور النحوي لبرجشتراسر بتعليق د. رمضان عبد التواب: 45 (القاهرة 1402 هـ/1982).

(57) الأصوات اللغوية: 91 (ط 6 القاهرة 1981).

ويذكر برجشتراسر[58] سبباً علمياً لتسهيل هذه الهمزة فيقول: «إن الهمزة أصعب إخراجاً من غيرها من الحروف، فينبغي لإخراجها تغليق فم الحنجرة وهو مفتوح في غيرها فينقطع الزفير المتواصل الخروج أثناء الكلام».

وقوله: «ينقطع الزفير المتواصل الخروج أثناء الكلام» يعني به عدم وجود قوة في هواء الزفير الخارج أثناء نطق الهمزة الثانية مما يجعل الناطق يخفف هذه الهمزة فتكون همزة بَيْنَ بَيْن.

ومن كل هذا يظهر لنا أنّ نطق هذه الهمزة الثانية قد خُفِّفَت، فسبب سقوطها في درج الكلام وذلك لأنَّ عدم وجود ضغط كاف لإخراجها كالهمزة الأولى لانخفاض شدة هواء الزفير الذي يكون عند خروجه في المرة الثانية أضعف من المرة الأولى مع عدم وجود انحباس تام للهواء، وذلك لأنّ الناطق غير مستعد لحبس الهواء وتفجيره أكثر من مرة واحدة لأنّ ذلك يسبب له جهداً كبيراً يتحاشاه القارىء فيبادر إلى تسهيلها أو إسقاطها مع إبقاء الفتحتين قبلها وبعدها، فيظهر هذا الصوت الذي أطلق عليه نحاة العربية ومنهم سيبويه بـ (همزة بَيْنَ بَيْن) فلمثل هذه الصعوبة في الهمزة والجهد العضلي الذي يستوجبه إخراجها جعلت اللهجات العربية تفر من تحقيقها، فتسهلها أحياناً وتسقطها أحياناً أخرى.

خامساً: النون الخفيَّة:

وقد سماها سيبويه النون الخفيفة[59] وهي غير النون الخفيفة التي ترد مخفّفة من نوني التوكيد والتي لها أحكام خاصة في الوقف تفردها بطابع خاص حيث تصير في الوقف ألفاً نحو قفا في (قفن).

وقد وردت النون الخفيّة في كتاب سيبويه دون تمثيل لها في موضعها وهي نون الإخفاء[60]، أي النون الساكنة التي تأتي قبل حروف الفم، وهي خمسة عشر

---

(58) التطور النحوي: 42.

(59) الكتاب: 4/432.

(60) انظر شرح ابن يعيش: 10/126. شرح الشافية: 2/254 ـ 255.

حرفاً (القاف، الكاف، الجيم، السين، الصاط، الضاد، الشين، الزاي، الطاء، الظاء، الدال، التاء، الذال، الثاء، الفاء).

وهذه النون يكون مخرجها من الخيشوم عند نطقها مع تلك الحروف الفموية التي ذكرناها آنفاً.

ويوضح ذلك ابن يعيش فيقول: «فهي متى سكنت وكان بعدها حرف من هذه الحروف ـ أي: الحروف الفموية ـ فمخرجها من الخيشوم لا علاج على الفم في إخراجها، ولو نطق بها الناطق مع أحد هذه الحروف وأمسك أنفه لَبانَ اختلالها، وإن كانت ساكنة وبعدها حرف من حروف الحلق الستة[61] فمخرجها من الفم من موضع الراء واللام وكانت بيّنة غير خفيّة وذلك من قبل أنّ النون الخفيّة إنّما تخرج من حرف الأنف الذي يحدث إلى داخل الفم لا من المنخر»[62].

وعلل سبب خفائها بقوله: «فلم تقو قوة حروف الفم فتدغم فيها ولم تبعد بعد حروف الحلق فتظهر معها وإنما كانت متوسطة بين القرب والبعد فتوسط أمرها بين الإظهار والإدغام فأخفيت عندها» وقال أيضاً: «خفيت مع حروف الفم لأنّهنّ يخالطنها» ومثّل لها بنون (منك) (عنك) وهذه مخرجها من الخيشوم.

أما سيبويه فقد أوضح سبب خفائها بقوله: «تكون النون مع سائر حروف الفم حرفاً خفياً مخرجه من الخياشم وذلك أنها من خروف الفم وأصل الإدغام لحروف الفم لأنّها أكثر الحروف، فلمّا وصلوا إلى أن يكون لها مخرج من غير الفم كان أخف عليهم أن لا يستعملوا ألسنتهم إلّا مرّة واحدة، وكان العلم بها أنها نون من ذلك الموضع كالعلم بها وهي من الفم لأنه ليس حرف يخرج من ذلك الموضع غيرها فاختاروا الخفة إذ لم يكن لبس»[63].

---

(61) يعني حروف الحلق الستة كما حددها القدماء وهي (الهمزة والهاء والعين، الحاء والغين والخاء) وأضاف إليها سيبويه الألف، وهي التي عدّ الخليل مخرجها مع الهمزة من الجوف.
(انظر مقدمة العين: 57/1 تحقيق د. مهدي المخزومي، د. السامرائي (دار الرشيد بغداد 1981) والكتاب: 433/4. والنشر في القراءات العشر: 199/1.

(62) شرح المفصل: 126/10.

(63) الكتاب: 454/4.

سادساً: الشين التي كالجيم:

وهذا الحرف أيضاً لم يضرب سيبويه له مثالاً في موضعه ولكن يمكن أن نفهم من قوله: هو «كالجيم» أنّ الشين هذه تكون مجهورة، وقد مثّل لها ابن عصفور[64] وابن يعيش[65] كنطقهم (أشْدق) في (أشدق)، وذلك بنطق الشين وفيها رائحة الجيم. وسماه المبرد (الحرف المعترض بين الشين والجيم)[66].

والسبب في جهر هذه الشين كما يقول ابن يعيش «لأنّ الدال حرف مجهور شديد والجيم مجهور شديد والشين مهموس رخو، فهي ضد الدال بالهمس والرخاوة فقربوها من لفظ الجيم لأنّ الجيم قريبة من مخرجها موافقة الدال في الشدة والجهر»[67].

ويبدو لي أن سبب إبدالها شيناً مجهورة وليست جيماً خالصة، هو أن الجيم الخالصة شديدة حسب قول سيبويه[68] وتبدأ شديدة وتنتهي رخوة في نطق المتعلمين في الوقت الحاضر كما يقول المحدثون[69]، فهي صوت مركب أو مزجي[70] قليل الشدة أي: أن انفصال العضوين أبطأ قليلاً منه في حالة الأصوات الشديدة الأخرى، لذلك يحتاج نطقه إلى جهد لحبس الهواء ثم انفتاح المخرج الذي حبس الهواء بصورة بطيئة بعد ذلك، فإذا أريد نطق صوت آخر بعده، ويكون شديداً احتاج ذلك الأمر إلى جهد أكبر، وإلى كمية من الهواء تكفي للضغط مرة ثانية ثم الانفجار بإخراج الصوت الشديد، وهذا ما لا يسهل عمله؛ لأنّ الدراسة التجريبية الحديثة لعملية الكلام «أثبتت أن الصدر لا يواصل ضغطاً ثابتاً خلال

---

(64) الممتع: 665/2.

(65) شرح المفصل: 127/10.

(66) المقتضب: 194/1.

(67) شرح المفصل: 127/10.

(68) الكتاب: 434/4.

(69) محاضرة شاده: 10 وقال الدكتور رمضان في المدخل ص 78: الجيم يجمع بين الشدة والرخاوة. وسمّاه بالصوت المزدوج وسمّاه كانتينو (الدروس: 41) حرف شديد ذو زائدة رخوة مشأشأة.

(70) الأصوات د. أنيس: 78.

المجموعة النفسية، وأن عضلات الصدر تنتج نبضة منفصلة من الضغط لكل مقطع»[71] وعلى هذا يحاول الناطق الابتعاد عن اجتماعهما لأنّهما يجهدانه، وهذا شبيه بمحاولة الناطق الابتعاد عن الصوتين المتماثلين كما حصل ذلك عند تخفيف إحدى الهمزتين عند التقائهما، فنبّه سيبويه إلى مثل هذه الحالة فقال «فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا، ومن كلام العرب تخفيف الأولى وتحقيق الآخرة وهو قول أبي عمرو. وذلك قولك ﴿فقد جاء أشراطها﴾[72]، ﴿ويا زكريا إنا نبشرك﴾[73] ومنهم من يحقق الأولى ويخفّف الآخرة. سمعنا ذلك من العرب، وهو قولك فقد جاء أشراطها، ويا زكرياء إنا نبشرك، وقال:

كـلُّ غَـرَّاء إذا مـا بَـرَزَتْ تُـرْهَبُ العين عليهـا والحَسَـد

«سمعنا من يوثق به من العرب ينشد هكذا»[74] فنرى الشاهد في هذا البيت الذي ذكره سيبويه هو تخفيف الهمزة الثانية، أي أوّل الكلمة الثانية (إذا) وجعلها همزة بين بين مع أنّ الحرفين المتماثلين لم يأتيا في كلمة واحدة ومع ذلك يتثاقل الناطق العربي من تحقيقهما، وقد سبق أن أشرنا إلى علة ذلك، وشبيه به إبدال صوت الجيم المركب بصوت الشين المجهورة المتفشية عند مجاورتها الدال، وإنّما أصبحت الشين مجهورة ومتفشية، ليسهل نطقها بتفشيها وتناسب الدال بجهرها. ونطق الجيم هذا شبيه بنطق الجيم في اللهجة السورية واللبنانية للفظة (جمل) (Jamal)[75] أي بشين مجهورة وشبيه بها أيضاً الشين المجهورة في نطق أهل القاهرة للفظة (الأشغال) و (الأشجار)[76].

ويبدو أنّ السبب في تغيّر هذه الشين هو السبب نفسه الذي ذكره ابن يعيش

---

(71) دراسة الصوت اللغوي د. مختار: 237 ـ 238.

(72) سورة محمد، آية: 18.

(73) سورة مريم، آية: 7.

(74) الكتاب: 549/3 وانظر شرح المفصل: 118/9.

(75) (J) في الكلمة تنطق شبيهة بالحرف (J) في الكلمة الفرنسية (Journal) فنطقها يكون فيه شيء من الزاي مشوبة بالشين.

(76) انظر اللغة العربية معناها ومبناها د. تمام حسّان: 54.

في تغيّر الشين في (أشدق)، حيث إن الشين في الأشغال والأشجار تجاورت مع حرف الغين والجيم، وهما صوتان مجهوران، فأثر جهرهما عند مجاورتهما للشين، فنطقت الشين مجهورة مع وجود التفشي فيها ولم تتحول إلى شديدة لما للحرف الشديد من جهد زائد يحتاجه الناطق عند إخراجه لهذا الحرف، لذلك ابتعدت عنه هذه اللهجات في بعض المواضع.

وهذا التغيير في الشين يعزوه سيبويه إلى التماس الخِفّة وسمّاها المضارعة[77] فذكر تفسيراً لذلك في باب الحرف الذي يضارَعُ به حرفٌ من موضعه والحرف الذي يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه، فيقول:

«أما الحرف الذي ليس من موضعه فالشين لأنّها استطالت حتى خالطت أعلى الثَّنِيَّتين وهي في الهمس والرخاوة كالصاد والسين وإذا أجريت فيها الصوت وجدت ذلك بين طرف لسانك وانفراج أعلى الثَّنِيَّتين وذلك قولك (أشدق) فتضارع بها الزاي والبيان أكثر وأعرف، وهذا عربي كثير»[78].

من هذا النص نفهم أنّ الشين حين استطالت ضارعت الزاي وسمّاها فيما سبق بالشين التي كالجيم وقد ضارعت الزاي بالجهر لأنّ الصوت المجاور لها وهو الدال هو ليس من موضع الشين[79] وأنه مجهور شديد وأنها ـ أي الشين ـ صوت مهموس رخو فضارعت الشين الزاي لأنّه يشترك مع الشين بالرخاوة ويناسب الدال المجهورة لأنّه مجهور ومع هذا قال سيبويه: إن البيان ـ أي النطق بالشين الخالصة ـ أكثر وأعرف بين الفصحاء، ولكنّه أوضح أن من ضارع الزاي فهو عربي أيضاً ولم يستنكره وعدّه ـ كما قلنا ـ من الحروف الفرعية المستحسنة ويجوز في قراءة القرآن والأشعار العربية.

---

(77) انظر الكتاب: 4/479 ومحاضرة شاده: 17.

(78) الكتاب: 4/479.

(79) مخرج الدال من طرف اللسان وأصول الثنايا كما يقول سيبويه (4/433) ويقول عنه المحدثون إنه أسناني لثوي (تمام حسان: 79. وكانتينو: 23). والشين مخرجها من وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى كما يقول سيبويه (الكتاب: 4/433) ويقول المحدثون إنها غاريّة، أي: تخرج من الغار (تمام حسان: 79. وكانتينو: 23).

وبهذه الحروف الفرعية المستحسنة التي حدّدها اللغويون العرب القدامى منهم والمحدثون تتضح بعض الصور الجمالية للصوتيات العربية وتبرز لنا الصورة اللامعة والإمكانية الفذّة والنتائج العلمية الباهرة التي توصل إليها علماء العربية وفي مقدمتهم سيبويه بما ذكره في كتابه من ملاحظات وإشارات صوتية ممّا جعل المستشرق شاده يقول فيه:

«يستحق ما قد وصل إليه من غايات علم الأصوات أن نعتبره ما أجمع على تسميته كل من درسه من علماء الشرق والغرب: مفخراً من أعظم مفاخر العرب»[80].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- أنيس، إبراهيم.
  - الأصوات اللغوية (ط 6، دار الطباعة الحديثة/ القاهرة 1981 م).
- برجشتراسر، المستشرق.
  - التطور النحوي، تعليق د. رمضان عبد التواب (القاهرة/ 1402 هـ - 1982 م).
- ابن الجزري، شمس الدين محمد بن محمد (833 هـ).
  - النشر في القراءات العشر (طبع دار الكتب العلمية - بيروت، بدون تاريخ).
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (392 هـ).
  - سر صناعة الإعراب، تحقيق محمد السقا وآخرين (مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر 1954 م).
- حسان، تمام.
  - اللغة العربية معناها ومبناها (طبع دار الثقافة، الدار البيضاء بالمغرب، بدون تاريخ).

(80) محاضرة د. شاده ص 26.

- أبو حيّان، محمد بن يوسف الأندلسي (754 هـ).
- البحر المحيط (ط 1 مطبعة السعادة - القاهرة).
- الدمياطي، أحمد بن محمد البناء (1117 هـ).
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشرة (القاهرة، 1309 هـ).
- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (337 هـ).
- الجمل (ط 2، باريس).
- أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة.
- حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني (ط 3 مؤسسة الرسالة 1402 هـ - 1982 م).
- الزمخشري، أبو القاسم جاد الله محمد بن عمر (538 هـ).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (ط 2، مطبعة الاستقامة، القاهرة 1281 هـ).
- ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب (244 هـ).
- كتاب الإبدال، تحقيق د. حسين محمد شرف وعلي الجندي (القاهرة 1398 هـ - 1978 م).
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (180 هـ).
- الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون (ط 2، دار الجيل القاهرة، 1982 م - 1402 هـ).
- السيوطي، جلال الدين (911 هـ).
- همع الهوامع (ط 1، السعادة بمصر 1327 هـ).
- شاده، أ:
- علم الأصوات عند سيبويه وعندنا، محاضرة ألقاها بقاعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة، ونشرت بصحيفة الجامعة المصرية، السنة الثانية، العدد 5، (ذو الحجة 1349 هـ - مايو 1931 م).
- أبو الطيب، عبد الواحد بن علي اللغوي.
- الإبدال، تحقيق عز الدين التنوخي (طبع دمشق 1960 م).
- عبد التواب، رمضان:
- التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه (مطبعة المدني القاهرة، 1977 م).
- المدخل إلى علم اللغة (ط 1، القاهرة، 1982 م/1402 هـ).
- ابن عصفور، أبو الحسن علي بن مؤمن الإشبيلي (669 هـ):
- الممتع في التصريف، تحقيق د. فخر الدين قباوة (ط 4، دار الآفاق بيروت 1979 م).

- الفارسي، أبو علي:
- الحجة في علل القراءات السبع، تحقيق علي النجدي وزميله (الهيئة المصرية 1983 م).

- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (175 هـ).
- العين (تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي) (دار الرشيد بغداد 1981 م).

- فليش، هنري:
- العربية الفصحى، تعريب وتحقيق د. عبد الصبور شاهين (دار المشرق بيروت 1983 م).

- كانتينو، جان:
- دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي (نشر الجامعة التونسية 1965 م).

- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (285 هـ):
- المقتضب (طبع الأهرام بالقاهرة 1386 هـ).

- محمد، مناف مهدي:
- لهجة الكوفة الحديثة وصلتها باللغة العربية الفصيحة (رسالة ماجستير، مخطوطة كلية اللغة العربية/ جامعة الأزهر 1981 م),

- مختار، أحمد:
- دراسة الصوت اللغوي (القاهرة 1976 م).

- ابن يعيش، يعيش بن علي (643 هـ):
- شرح المفصل (طبع عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ).